المنهج العلمي

في الفتوى عند الشيخ الطاهر بن عاشور

الباتول أيت سملال

الألوكة
www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

المنهج العلمي في الفتوى

عند الشيخ الطاهر بن عاشور

▪ الباحثة: أيت سملال الباتول

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمان الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم تسليما.

وبعد:

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: إن الأوضاع انقلبت انقلابا تاما بحيث أصبحت المسائل المدونة في كتب الفقه قليلة النظائر في الحياة العملية الحاضرة، وذلك هو الذي جعل مشكلة الإجتهاد مصورة في يومنا الحاضر بما لم تتصور به في القرون الغابرة، ولا يمكن أن تتصور به. فقد أصبحت مظهرا لانعزال الدين عن الحياة العملية، واندفاع تيار الحياة بالأمة الإسلامية أن تلفق قوانين للأحوال الشخصية تستمد من المذاهب المختلفة نصا أو تخريجا، فأين هي من بقية القوانين العامة والخاصة ؟ وأين الدارسون للشريعة والباحثون في الأحكام والداعون إلى الاجتهاد فيها من مبالغ الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والقانونية التي تطفح على بلاد الإسلام بكل نظام أجنبي مستعار دخيل على الملة."[1] إن مثل هذا القول لا يصدر إلا عن علم من أعلام هذا العصر، وركن من أركان الحركة الإصلاحية، وإمام مجتهد من الأئمة الذين يوضح الله بهم طريق الإصلاح، هذا الإصلاح الذي لا يستطيعه كل من قرأ الفقه وحفظ متونه. بل له علماءه المفكرون والمنظرون وأصحاب مشاريع يحملونها للأمة من أجل التغيير. والشيخ الطاهر بن عاشور واحد منهم، ولهذا اخترت دراسة منهج الفتوى عنده، ولو بشكل متواضع لا يصل إلى حجمه العلمي، وأيضا لقلة الدارسين له في هذا الباب.

إن فقهاء الشريعة الإسلامية اليوم تعترضهم ثلاثة إشكالات لا بد لهم من إيجاد حل لها، أو على الأقل الوعي بها، كمرحلة أولى للتغيير المستقبلي: الإشكال الأول هو فقه النص، ومعرفة الآليات والضوابط الثابتة والمتجددة فيه. والثاني هو فقه الواقع بكل سماته وتمظهراته المعقدة والمركبة. وأما الثالث فهو طريقة تنزيل أحكام النص على الواقع المتغير مع اعتبار المآلات والعواقب، بحيث ينظر فيها إلى جلب مصلحة ودرأ مفسدة، لا العكس، أو تفويت مصلحة أكبر من أجل مصلحة أدنى. هذه المشاكل الثلاثة حاول ابن عاشور التغلب عليها بفكره الثاقب وجرأة التنزيل على الواقع المعاش. لهذا كانت خطة البحث في هذه المداخلة كالتالي:

---

[1] التجديد الأصولي. ص677

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الأول، معالم في سيرة العلامة الطاهر بن عاشور.

وتطرقت فيه إلى نشأته رحمه الله، والشيوخ الذين تتلمذ على يدهم، وتلامذته، ومؤلفاته بأنواعها، والوظائف التي حصل عليها ومجاله العلمي، وآراء العلماء في شخصه.

المبحث الثاني، تأثره بمفكري عصره وواقع تونس حينذاك.

المبحث الثالث، منهج ابن عاشور في الفتوى.

المبحث الرابع، محن الطهر بن عاشور بسبب فتواه.

الخاتمة.

المبحث الأول: معالم في سيرة العلامة الطاهر بن عاشور

نشأته:

هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، الإمام الضليع في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية والتاريخية. نشأ في بيئة علمية لجده الأب قاضي القضاة، وهو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، وهو أحد فقهاء المالكية. وجده للأم الشيخ محمد العزيز بوعتور الذي كان "في طليعة أهل الترجيح والفتوى على معنى اعتراف شيوخ العلم بأجمعهم بواسع علمه وعظيم فضله. ولقد التجأوا إليه غير مرة للترجيح بينهم فيما يعرض بينهم من الخلاف في فهم بعض النصوص أو في تطبيق بعض للقواعد المذهبية على المستجدات العصرية."[2] وهذا القول فيه دلالة على منبعه العلمي. ولد الشيخ في ضواحي العاصمة التونسية في جمادى الأول سنة 1296هـ/1879م. وفي مثل هذا الوسط العلمي والسياسي والإصلاحي حفظ القرآن الكريم، والمتون، وتعلم اللغة الفرنسية، والتحق بجامع الزيتونة سنة 1310هـ/1893م، وقرأ فيها علوم القرآن، والقراءات، والحديث، والفقه المالكي، والسيرة، والبلاغة.

شيوخه:

أول من أخذ عنه العلم هو جده الشيخ الفقيه محمد بوعتور، والشيخ صالح الشريف، وقرأ على جماعة من أعلامه منهم إبراهيم المارغيني، وسالم بوحاجب، وعمر بن الشيخ،

---

[2] صفحات من تاريخ تونس.ص448

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومحمد النجار، ومحمد بن يوسف، ومحمد النخلي، إلى أن أحرز على شهادة التطويع سنة 1317هـ/1896م."[3]

تلامذته:

أما تلامذته فقد أخذ عنه العلم عدد كبير من الطلاب. وكان منهم محمد الصادق ابن الحاج محمود المعروف ببسيس، ومحمد الصادق الشطي، وأبو الحسن ابن شعبان، ومحمد الفاضل ابن الشيخ الطاهر بن عاشور، وعلي بن محمد البودلمي، ومحمد العيد آل خليفة، وأحمد كريم، ومحمد الشاذلي النيغر.

مؤلفاته:

وقد قسمت مؤلفاته إلى قسمين منها مؤلفات في العلوم الإسلامية، وأخرى في العربية وآدابها .

- **مؤلفات العلوم الإسلامية :**

- التحرير والتنوير
- مقاصد الشريعة الإسلامية
- أصول النظام الاجتماعي في الإسلام
- أليس الصبح بقريب
- الوقف وآثاره في الإسلام
- كشف المعطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ
- قصة المولد
- حواشي على التنقيح لشهاب الدين القرافي في أصول الفقه
- رد على كتاب الإسلام وأصول الحكم تأليف على عبد الرازق
- فتاوى ورسائل فقهية
- التوضيح والتصحيح في أصول الفقه
- النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح
- تعليق وتحقيق على شرح حديث أم زرع
- قضايا شرعية وأحكام فقهية وآراء اجتهادية ومسائل علمية
- آمال على مختصر خليل

[3] تراجم المؤلفين التونسيين.ج 3/ص304 بتصرف

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- تعاليق على العلول وحاشية السياكوتي
- آمال على دلائل الإعجاز
- أصول التقدم في الإسلام

▪ **مؤلفات اللغة العربية وآدابها :**

- أصول الإنشاء والخطابة
- موجز البلاغة
- شرح قصيدة الأعشى
- تحقيق ديوان بشار
- الواضح في مشكلات المتنبي
- سرقات المتنبي
- شرح ديوان الحماسة لأبي تمام
- تحقيق فوائد العقيان للفتح ابن خاقان مع شرح ابن زاكور
- ديوان النابغة الذهبي
- تحقيق "مقدمة في النحو" لخلف الأحمر
- تراجم لبعض الأعلام
- تحقيق كتاب "الاقتضاب" للبطليوسي مع شرح كتاب أدب الكاتب
- جمع وشرح ديوان سحيم
- شرح معلقة امرئ القيس
- تحقيق لشرح القرشي على ديوان المتنبي
- غرائب الاستعمال
- تصحيح وتعليق على كتاب "النتصار" لجالينوس للحكيم ابن زهر .

وقد عدد الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة المجلات العلمية التي أسهم فيها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، نذكر منها :

- السعادة العظمى
- المجلة الزيتونية

ومن الصحف والمجلات الشرقية :

- هدى الإسلام
- نور الإسلام
- مصباح الشرق
- مجلة المنار

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

- مجلة الهداية الإسلامية
- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة
- مجلة المجمع العلمي بدمشق .

مجاله العلمي والوظيفي:

بعد أن حصل الشيخ على شهادة التطويع وسمي عدلا مبرزا، أقبل على التدريس بجامع الزيتونة والمدرسة الصادقية، و" فاز في مناظرة التدريس من الطبقة الثانية عوضا عن الشيخ محمد النخلي (ت 1925م) الذي ارتقى إلى الطبقة الأولى بوفاة الشيخ الصادق الشاهد. وفي سنة 1324هـ/1905م فاز في مناظرة التدريس من الطبقة الأولى. وكانت خطة التدريس عوضا عن الشيخ حسين بن حسين 1329هـ/1906م."[4] فحلقات العلم بالجامع الأعظم كانت مشهورة ومعروفة بين الطلاب ويقصدونها من كل مكان، خصوصا ما كان له علاقة بالفقه المالكي. " كان الشيخ ابن عاشور يومئذ رأس علماء المالكية. وكان يلقي في الساعة التاسعة من صباح كل يوم درسه بصوته الجهوري المحبوب...بينما كان رأس علماء الحنفية الشيخ محمد ابن يوسف يلقي بنفس الوقت درسه بصوت جهوري رقيق في آن واحد...حلقتان علميتان اثنتان تمتدان من هنا ومن هناك في شكل بيضاوي في سلكين اثنين على الأقل من الراغبين في التحصيل تجد فيهما على الدوام عددا كبيرا من نخبة المدرسين...وكثيرا ما كان يحمى فيهما وطيس الأسئلة والأجوبة والجدال والنقاش في جو علمي ولكنه جو مهذب ورفيع."[5] هكذا وصف الأستاذ الطيب العنابي حلقات العلم التي كان يدرسها الشيخ ابن عاشور.

عين الطاهر بن عاشور نائبا أول لدى النظارة العلمية بجامع الزيتونة سنة (1325 هـ /1907م)؛ فبدأ في تطبيق رؤيته الإصلاحية العلمية والتربوية، وأدخل بعض الإصلاحات، وحرر لائحة في إصلاح التعليم وعرضها على الحكومة فنفذت بعض ما فيها، وأدرك ابن عاشور أن الإصلاح التعليمي يجب أن ينصرف بطاقته القصوى نحو إصلاح العلوم ذاتها. ورأى أن تغيير نظام الحياة في أي من أنحاء العالم يتطلب تبدل الأفكار والقيم العقلية، ويستدعي تغيير أساليب التعليم. وقد سعى الطاهر إلى إيجاد تعليم ابتدائي إسلامي في المدن الكبيرة في تونس على غرار ما يفعل الأزهر في مصر، ولكنه قوبل بعراقيل كبيرة. أما سبب الخلل والفساد اللذين أصابا التعليم الإسلامي فترجع في نظره إلى فساد المعلم، وفساد النظام العام؛ وأعطى أولوية لإصلاح العلوم والتآليف.

[4] نفس المصدر.ص56
[5] نفس المصدر.ص57

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

اختير ابن عاشور في لجنة إصلاح التعليم الأولى بالزيتونة في (صفر 1328 هـ /1910م)، وكذلك في لجنة الإصلاح الثانية (1342 هـ / 1924م)، ثم اختير شيخا لجامع الزيتونة في (1351 هـ / 1932م)، كما كان شيخ الإسلام المالكي؛ فكان أول شيوخ الزيتونة الذين جمعوا بين هذين المنصبين، ولكنه لم يلبث أن استقال من المشيخة بعد سنة ونصف بسبب العراقيل التي وضعت أمام خططه لإصلاح الزيتونة، وبسبب اصطدامه ببعض الشيوخ عندما عزم على إصلاح التعليم في الزيتونة.

أعيد تعينه شيخا لجامع الزيتونة سنة (1364 هـ / 1945م)، وفي هذه المرة أدخل إصلاحات كبيرة في نظام التعليم الزيتوني؛ فارتفع عدد الطلاب الزيتونيين، وزادت عدد المعاهد التعليمية.كما اهتم بعلوم الطبيعة والرياضيات، و دعى في المرحلة التعليمية العالية الطلاب إلى التخصص، وبدأ التفكير في إدخال الوسائل التعليمية المتنوعة.

وحرص على أن يصطبغ التعليم الزيتوني بالصبغة الشرعية والعربية، حيث يدرس الطالب الزيتوني الكتب التي تنمي الملكات العلمية وتمكنه من الغوص في المعاني؛ لذلك دعا إلى التقليل من الإلقاء والتلقين، وإلى الإكثار من التطبيق؛ لتنمية ملكة الفهم التي يستطيع من خلالها الطالب أن يعتمد على نفسه في تحصيل العلم.

وعند استقلال تونس أسندت إليه رئاسة الجامعة الزيتونية سنة (1374 هـ = 1956م)، و سعى في إحياء بعض العلوم العربية التي كانت مقتصرة على النحو والبلاغة ليصبح الاهتمام بمادة الصرف وأدب اللغة، و " درس بنفسه شرح ديوان الحماسة الذي أبدى فيه ضلاعة في اللغة والنقد وسمو الذوق وحاز به شهرة."[6]

ولقد ضمن الإصلاح التربوي عامة والتعليمي خاصة في كتابه " أليس الصبح بقريب" إذ يعد " وثيقة لحياة الطلاب الزيتونيين ووصفا أمينا لمعاشهم ودروسهم وسكنهم وأسباب تأخر التعليم الزيتوني والتآليف ووجوه إصلاحها، وكيف تأخرت العلوم الإسلامية ونقده للمعلمين في عهده وطرق تدريسهم. وقد أفدت منه في آراء الشيخ التربوية ونقده للعلوم الإسلامية و تعليقه على المؤلفات التي خلت من المنهجية وامتلأت بالحواشي ولم تحوي فكرا إسلاميا أصيلا."[7]

ويكفي لمعرفة مكانة الطاهر بن عاشور العلمية، أنه كان علما في الحديث، حافظا حجة له إسناد جامع لصحيحي البخاري ومسلم، وله أيضا " إسناد عزيز روى به أحاديث البخاري يعرف بسند المحمدين، وقد أجاز بذلك عددا من العلماء من تونس والجزائر والمغرب. هذا إلى تحقيقاته وشروحه على مرويات الإمامين مالك بن أنس وأبي عبد الله البخاري."[8] وأما

---

[6] تراجم المؤلفين. ص305

[7] الشيخ الجامع الأعظم.ص12

[8] مقاصد الشريعة الإسلامية.ص 16

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رسوخه في الفقه وأصوله، فيكفي شاهدا له كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية، الذي قال عنه مصطفى زيد: " وتمضي الأعوام فلا نرى في المصلحة كلاما ذا وزن، حتى يخرج علينا شيخ جامع الزيتونة السيد محمد الطاهربن عاشور، منذ سبع سنوات بكتاب في مقاصد الشريعة الاسلامية."[9] ويقول عنه الأستاذ رمضان البوطي :" من أهم ما يمتاز به هذا الكتاب فيما أعتقد أنه، مؤلف...مستقل يعالج موضوعا من أبرز وأهم الموضوعات في أصول الفقه، ألا وهو مقاصد الشريعة الاسلامية، ويفرده بالبحث والتحليل...لا ريب أن صنيع العلامة المرحوم ابن عاشور يعد تأسيسا كبيرا لذاتية هذا العلم، ورسما لإطاره الذي يميزه عن غيره."[10] وقال عنه الأستاذ إسماعيل الحسني: " لم يقتصر ابن عاشور على إبراز أصالة الموافقات، بل تعدى ذلك إلى محاولة الدفع بالكتابة في مبحث المقاصد في الوجهة التي يقتضيها التطور."[11] ولقد رد الأسباب التي أضعفت حركة الاجتهاد هو تأخر علم أصول الفقه الذي هو من أهم العلوم التي تؤدي إلى الاجتهاد. وذكر أسباب ذلك، منها التعصب المذهبي واستنباط الحكم بالإلتزام أو نحوه، فصار قصار جهدهم نقل الفروع وجمع الغرائب ونقل الخلاف. والسبب الثاني هو طغيان التقليد وإبطال النظر في الترجيح والتعليل، والسبب الثالث هو عدم العناية بجمع النظائر والقواعد للفروع المتحددة بذكر الحكم الجامع بينها حتى يستغنى عن كثرة التفريع.[12]وأيضا ضعف اللغة وعلوم الاجتماع التي هي من أهم شروط المجتهد حتى يكون له إلمام بالسنن الاجتماعية والتاريخية لحركة المجتمعات.

ما قيل عن ابن عاشور:

و على العموم فإن سيرة الطاهر بن عاشور عبر السنين تعبرعن جد لا ينفتر، وعزيمة وتصميم لا يتراجعان. فكان الشمول والاستيعاب طابع تحصيله للعلم والمعرفة، والتمحيص والتدقيق نهجه، وديدنه الاستقلال في النظر والرأي. وازداد نضجا عندما راكم تجاربه في العمل الاجتماعي العام، وخاصة في التربية والتعليم. وهذا ما شهد به صديقه الشيخ محمد الخضر حسين بمناسبة تعيينه أول مرة شيخا لجامع الزيتونة " شب الاستاذ على ذكاء فائق وألمعية وقادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم. ولما كان بيني وبينه من الصداقة النادرة المثال، كنا نحضر دروس بعض الأساتذة جنبا إلى جنب، مثل درس

[9] نظرية المقاصد.ص28
[10] مجلة الوعي الاسلامي.ص46
[11] نظرية المقاصد.ص27
[12] الشيخ الجامع الأعظم ص116 بتصرف

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الأستاذ الشيخ سالم أبي الحاجب...وللأستاذ فصاحة نطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارة العلم وقوة النظر صفاء الذوق وسعة الإطلاع في آداب اللغة."[13]

ويقول عنه أيضا الشيخ محمد البشير الإبراهمي " الأستاذ الأكبر محمد الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية، مستقل في الإستدلال لها، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذرع بتحملها، نافذ البصيرة في معقولها، وافرالاطلاع على المنقول منها ."[14]

وقال هو عن نفسه: " ولا آنس برفقة ولا حديث أنسي بمسامرة الأساتيذ والإخوان في دقائق العلم ورقائق الأدب، ولا حبب إلي شيء ما حببت إلي الخلوة إلى كتاب والقرطاس متنكبا كل ما يجري من مشاغل تكاليف الحياة الخاصة ولا أعباء الأمانات العامة التي حملتها فاحتملتها في القضاء وإدارة التعليم حالى بيني وبين أنسي في دروس تضيء منها بروق البحث والفهم الصائب."[15]

ويقول عنه الشيخ محمد الغزالي أنه " رجل القرآن الكريم وإمام الثقافة الإسلامية المعاصرة...الرجل بدأ يتكلم عن اللغة، ويتكلم بها أديبا...أقرأ كلماته في التحرير والتنوير فأستغرب لأنه وطأ كلمات مستغربة وجعلها مألوفة، وحرر الجملة العربية من بعض الخباث الذي أصابها أيام انحدار الأدب في عصوره الأخيرة...ابن عاشور لا يمثل صورة من اللحم والدم، وإنما يمثل تراثا أدبيا علميا عقائديا أخلاقيا."[16]

المبحث الثاني: تأثره بمفكري عصره وواقع تونس حينذاك.

كان عصر الشيخ ابن عاشور عصر اضطرابات وفتن ليس في البلاد التونسية فحسب ولكن في العالم إسلامي كله. حيث ازدادت دوله انقساما وتشرذما ونزاع مستمر بين أمرائه، والإنسان المسلم نتيجة الخوف والمرض والجهل، فقد روح المبادرة إلى التغيير والبحث عن الأفضل له ولمجتمعه. " فقد شمل الانحراف العقيدة والعبادة والتشريع، ولم يبق له من دينه غير شكليات ليست من الإسلام فيشيء. والحياة العلمية في البلاد الاسلامية قد بعدت عن الابتكار واغلقت على نفسها، فلم تعد سوى كتاب لا يستجيب لعصره يدرس، أو متن يحفظ، أو جملة تعرب، أوشرح على متن أو حاشية على شرح. أما علوم العصر فقد خلت منها المعاهد العلمية فتحجرت العقول وتبلدت الأفهام وانتشرت الأوهام

---

[13] أعلامنا ص93
[14] عيون البصائر ج549/3
[15] تراجم المؤلفين 306/3
[16] نظرية المقاصد.ص27

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

والخرافات."[17] وهذه الحالة التي وصفها بلقاسم الغالي لتونس هي عامة لبلدان العالم الإسلامي، لذلك ظهرت مدارس إصلاحية تحاول تغيير الاوضاع الفاسدة.

ومن أبرزها والتي كان لها الأثر على الشيخ المدرسة الأفغانية التي تزعمها السيد جمال الدين الأفغاني وتابعها تلميذه الشيخ محمد عبده صداها البعيد في العالم الإسلامي، وذلك عن طريق مجلة العروة الوثقى والزيارات المتتابعة للبلدان الإسلامية من قبل الشيخين الأفغاني ومحمد عبده. وفي هذا النطاق تتدرج زيارتي الشيخ محمد عبده إلى تونس الأولى كانت سنة 1885م وكان عمر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ثماني سنوات.

أما الزيارة الثانية لمفتي الديار المصرية فكانت سنة 1903م/1321هـ وكان عمر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ثلاث وعشرين سنة وهو يشغل مدرس من الطبقة الثانية، وهو في مقتبل العمر وقد نضجت أفكاره وتشبع وقرأ كثيرا عن آرائه، وتشوفت نفسه للقاء هذا المصلح الكبير. وتحقق له ذلك وعقدت مجالس علمية بين الشبخ محمد عبده وبين مفكري البلاد التونسيين. وكان الشيخ الأستاذ ابن عاشور لا يتخلف عنها وكان من بين الذين تقدموا للأستاذ الإمام باقتراح يطلبون فيه منه بأن يلقي درسا بالجمعية الخلدونية وكان عضوا بمجلسها الإداري، وقد كان له ذلك وألقي الدرس في جمادى الثانية سنة 1321هـ/ 1903م.

وأيضا تأثر بالمدرسة الإصلاحية المغاربية، والتي كانت على يد علماء أجلاء، منهم الشيخ إسماعيل التميمي، ومالك بن نبي، ومحمد الحجوي،وأبو عبد الله محمد المهدي الوزاني، ومحمد أمين الشنقيطي، وأحمد زارم الطرابلسي..وغيرهم[18] ولقد تضافرت هذه الدعوات الإصلاحية وعوامل أخرى داخلية وخارجية على تكوين الفكر الإصلاحي والمقاصدي عند الطاهر بن عاشور، حتى أصبح رائد الإصلاح في عصره، وسيظهر ذلك جليا في منهج الفتاوى عنده.

المبحث الثالث: منهج ابن عاشور في الفتوى

امتاز الشيخ في فتاواه بفكر نير وعمق في البحث، ودقة وضبط، وأيضامعرفة عميقة بأحوال العصر وما يروج فيه من آراء، فهو قد تحمل مسؤولية الفتوى طوال سبعين سنة، "منذ أن أيد الشيخ محمد عبده في فتويين أحدتا ضجة في مصر سنة 1903م، وهما لبس البرنيطة، وأكل طعام أهل الكتاب، إلى قبيل وفاته ببضعة أيام سنة 1973م، وذلك لما جاءه

[17] الشيخالجامع الأعظم ص17
[18] نفس المصدرص21

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

استفتاء من الجزائر حول ثبوت الهلال بالحساب الفلكي أو بالرؤية."[19] فهو قد كان مرجعا للمغرب الإسلامي والمشرق على السواء في فتاواه.

ولقد أفتى الشيخ حسب المراكز الوظيفية التي تقلدها، ونذكر منها:

- ثماني فتاوى لما كان مفتيا مالكيا.

- خمس عشرة فتوى لما كان باش مفتي مالكي.

- سبعون فتوى لما تولى خطة شيخ الإسلام المالكي.

- ست فتاوى لما أصبح عميد جامعة الزيتونة.

- فتويان لما تقاعد.

وجل فتواه صدرت لما تولى مشيخة الإسلام. ونشرت في عدة مجلات منها: جريدة الزهرة، والمجلة الزيتونية، وجريدة النهضة، وجريدة الوزير...[20] وكانت فتاواه لها علاقة بالتفسير وتأويل الحديث والعقيدة والعبادات من صلاة، وصوم، وزكاة، وحج، وأضحية، ولباس، وأحكام أسرة، وكذا الأقضية والشهادات، والمعاملات المالية، وفتاوى مستحدثة. ووفق الترتيب الذي قام به الدكتور محمد السويسي للمفتين الرسميين بتونس في القرن الرابع عشر الهجري، فإن الشيخ قد تبوأ المرتبة الأولى.[21]

ونجد الشيخ في العبادات أجاب عن حكم الشرع في قراءة القرآن جهرا في المسجد، وبقاء الإمام في المحراب بعد الصلاة وقراءة الفاتحة بعد صلاة الإمام والتنفل إثر صلاة الفريضة، وحكم قضاء الصلوات المتروكة وصلاة الجمعة لسكان القرى والبوادي وصلاة العيد بعد الزوال وحكم صلاة الجنازة بعد صلاة العصر. وأفتى أيضا في الزكاة، وحدد الحبوب والثمار التي تجب فيها الزكاة، ودفع الزكاة من عين ما أوجبت فيه، والمراد بيوم الحصاد. ومن إرجاع ديون الفلاحة وإلى غير ذلك مما له علاقة بالمتغيرات التي حصلت للتونسي في وقته.

وانطلاقا من فتاواه المتنوعة والغزيرة، وأيضا لقراءة أهم كتبه، وهي التحرير والتنوير، و مقاصد الشريعة، وأليس الصبح بقريب. يمكن القول بأن منهجه في الفتوى كان هو إبراز الدليل الصحيح من المنقول والمعقول، بحيث يعتمد على النص الشرعي أولا من كتاب وسنة، ثم يعقبه برأي إمام مذهبه وتلامذته، وكبار فقهاء المذهب المتقدمين والمتأخرين. وكان يقيد فتواه بقواعد بلاغية ونحوية، ويعود في فتاوى تأويل الحديث إلى كتب الحديث

---

[19] فتاوى الطهر بن عاشور.ص 17

[20] نفس المصدر.بتصرف

[21] فتاوى الطاهر بن عاشور.ص19

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وشروحها. وهو كذلك لا يكتفي في فتواه بمجرد الإخبار بالحكم في المسألة، وإنما يأتي عليها من كامل أطرافها، خصوصا إذا طلب منه المستفتي إيضاحا وإرشادا.

مثال ذلك فتوى لسائل عن الأعذار المبيحة للفطر في رمضان. فقبل أن يبين له هذه الأعذار، ذكر له مكانة شهر رمضان في الدين الإسلامي، والمقاصد السامية والحكم العالية التي من أجلها شرعت عبادة الصيام، مع الاستشهاد بأقوال العلماء مثل الإمام الغزالي والدهلوي، حتى يكون للسائل معرفة دقيقة بشريعة الصيام وأهميتها في الدين.

وبعد هذه المقدمة ذكر له أقسام المشاق التي قسمها العلماء حتى يوصله إلى المشقة التي تسقط العبادة، وليس أي مشقة، حيث قال: " قسم في الرتبة القصوى من المشقة. وقسم في الرتبة الدنيا كأدنى وجع في الإصبع، و قسم متوسط بين هذين، وقدروه في الشريعة تعيين مشاق مسقطة للصوم، فما لم يرد الشرع بتحديده يجب على الفقيه أن يفحص على أدنى المشاق الثابتة بدليل شرعي. ثم ينظر فيما لم يحدده الشرع فليلحقه بقسمه المماثل له."[22] فنجده قد بدأ أولا بذكر ما أورده الشارع على التعيين بقول الله عز وجل " ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر"[23] فإن لم يحدده الشرع، فعلى الفقيه أن يبحث عن المشاق الأخرى عن طريق الاستنباط من الأدلة الشرعية، ثم يستعمل النظر ليلحقها بما يماثلها. " وقد قاس العلماء على المرض : الشيخوخة والإرضاع والحمل، وجعلوا علة الفطر في السفر هي مظنة المشقة. فلنا أن نبني على أصول القياس على الرخص وأصول التعليل بالمظنة، فنجعل كل حالة يقرر فيها الأطباء ان الصوم يجر لصاحبه مرض أو يزيده مرضا على مرضه إن كان، أو يخر برأه حالة مبيحة لفطره "[24] وهنا يأخذ بالقول الثاني عند المالكية الذي يقولون فيه بجواز القياس على الرخص، والأخذ بقول الأطباء في حالة إن كان الصيام سيجر مرضا أو يؤخر شفاءه. ولم يقف الشيخ عند حد جواب السؤال بل تعداه إلى انتفاء بعض المفاهيم والعادات التي أدخلت على الصيام في رمضان وما هي من الدين. مثل غلوهم في ترك رخص الإفطار عند حصول الأعذار...كما أنهم غيروا من سيرهم في مدة الصيام تغييرا منهكا للقوى بإفراط السهر، والنهامة في الطعام...والشريعة لم تخاطب الناس بتغيير أحوالهم في مدة الفطر إلا ما لا حرج فيه من وقت العشاء ووقت السحور."[25]

ومنهجه في الفتوى أيضا، أنه كثير الالتزام بمذهب إمامه ويكثر الرجوع إلى الكتب المعتمدة عنده. وغالبا ما ينادي بعدم جواز الخروج عن المذهب الذي تقلده المستفتي وذلك رجوعا إلى أقوال العلماء مثل ابن الحاجب، والآمدي، والشاطبي، والغزالي، إلا في حالة الاضطرارالذي قد يفضي به إلى المشقة المبيحة للترخص.

---

[22] فتاوى الطاهر ص323

[23] سورة البقرة الآية 185

[24] نفس المصدر

[25] نفس المصدر ص 324

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويتمتع الطاهر بن عاشور بحس مقاصدي دقيق، يتضح في كتاباته كما في فتواه. وهذا ما أجمع عليه آراء كل من درس فكره المقاصدي، " هو خطوة متقدمة على طريق الفكر المقاصدي، تجاوز فيها الإمام ابن عاشور أهم ما أخذ على سابقه من تطويل وخلط وإغفال، مقتفيا آثارهم دون تقليد لهم، ومتميزا عليهم بتقديم منهج للكشف عن مقاصد الشريعة، جعله يضيف إلى ما ذكره السابقون مقصدين هامين هما مقصدا المساواة والحرية. وتلك خطوة اجتماعية هامة تتطلب المتابعة والتطوير."[26] هذه النظرة المقاصدية كان من أهم أدواتها الإجرائية الاستقراء الذي وظفه ضمن نظريته سواء في بنائها النظري أو مجالها التطبيقي، إيمانا منه " أن استقراء الشريعة يقتضي أن ما من مصلحة إلا وفيها مفسدة ولو قلت على البعد، ولا مفسدة إلا وفيها مصلحة وإن قلت على البعد "[27] وأنه لايجب إهمالها أو تركها وإن لم يكن فيها نص ولا إجماع، " ومن تتبع مقاصد الشرع في جلب المصالح ودرء المفاسد حصل له من مجموع ذلك اعتقاد أو عرفان بأن هذه المصلحة لا يجوز إهمالها وأن هذه المفسدة لا يجوز قربانها، وإن لم يكن فيها إجماع ولا نص ولا قياس خاص فإن فهم نفس الشرع يوجب ذلك."[28]

ويعد استقراء الطاهر بن عاشور لمقاصد الشرع على نوعين الأول هو استقراء علل الأحكام الثابتة بمسالك العلة، والثاني هو استقراء أدلة الأحكام الشرعية المتحدة في علة واحدة.[29] ويتبين ذلك في قوله " إن رواج الطعام وتيسير تناوله مقصد مقصد من مقاصد الشريعة، فنعمد الى هذا المقصد فنجعله أصلا، ونقول: إن الرواج إنما يكون بصور المعاوضات، والإقلال إنما يكون بصور من المعاوضات، إذ الناس لا يتركون التبايع، فما عدا المعاوضات لا يخشى معه عدم رواج الطعام."[30] وأيضا يتعامل مع مقصد سد الذرائع، وحرية التصرف، وحجية القياس في المصالح الكلية، وحفظ نظام العالم واستدامة صلاحه، والإنضباط والتحديد في الشريعة...هذا عن إثبات المقاصد العامة، أما الخاصة فهي حقوق المعاملات وأحكام النكاح ومقصد النسب...[31]

أما منهجه في الفتاوى المستجدة مثل الأسهم المالية، فإنه لا يجيب إلا بعد أن يستجمع ما يثبت به عنده الجواب. ويستخدم القياس ويعده ضروريا للمفتي إذا أحسن فهمه وأحسن تطبيقه على النوازل. مثل فتواه في زكاة الأوراق المالية. وتراه أيضا يعلل أقوال الفقهاء عندما لا يذكرون تعليل الحكم في بعض المسائل، مثل زكاة الزروع.

---

[26] نظرية المقاصد عند الطاهر بن عاشور.ص480
[27] تنقيح الفصول. ص87
[28] القواعد الكبرى.189/2
[29] نظرية المقاصد.ص368 بتصرف
[30] مقاصد الشريعة.ص17
[31] نظرية المقاصد ص372

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويقول بالعرف والعمل به كأصل من أصول المذهب، ويظهر ذلك في قوله في زكاة الفطر، وفي فتوى التحبيس على البنين دون البنات.

وأيضا من منهجه التدقيق في سند الأحاديث الشريفة، وينتقد ويعارض كبار المحدثين إن تبين له أن أدلته وجيهة. مثل فتوى المهدي المنتظر، حيث أجاب عنها بقوله: " إن واجبات الدين ترجع إلى ثلاثة أنواع: اعتقادات وأعمال وآداب، وإن التصديق بظهور المهدي في آخر الزمان لا ينزوي تحت تلك الأنواع. إذ ليس هو من الأمور التي يجب اعتقادها في ضمن العقيدة الإسلامية، فسواء على المسلم أن يعتقد بظهور المهدي، أو يعتقد بعدم ظهوره، وليس العلم بذلك من قبيل العلم الواجب طلبه على الأعيان، ولا على وجه الكفاية."[32] وإجابته هذه كانت نتيجة عرضه لكل المذاهب التي تطرقت لهذا الموضوع، وتاريخ نشأته، وطرق رواية الأثار الذي تحدثت عن المهدي المنتظر، ليبين رأي علماء الحديث فيها. وأنت تقرأ هذه الإجابة وكأنك أمام كتاب من كتب علوم الحديث وليس أمام فتوى، لشدة حرصه على معرفة السند الصحيح للأحاديث التي تروج بين الناس ويعتقد في صحتها.

وتتميز إجاباته على الفتوى أنها تكون تبعا لنوعية الاستفتاء، فهناك فتوى لم تتجاوز بضعة أسطر، وأخرى بلغت عشرات الصفحات. وعلى الرغم من تمسكه بالمذهب المالكي، إلا أن له اجتهادات جديدة محدثة مثل فتواه للمسافر بالطائرة بأن يحرم من جدة.

المبحث الرابع: محن الطاهر بن عاشور بسبب فتواه.

إن المنهج الذي اتبعه ابن عاشور في فتواه هو الذي جعله يتعرض لمحن وابتلاءات في حياته. خصوصا الفتوى التي لها علاقة بمستجدات ليس بلده تونس وحسب، بل واقع العالم العربي والإسلامي في ذلك الوقت. كفتوى التجنيس وفتوى الإفطار في رمضان.

فتوى التجنيس:

لقد صدر قانون التجنيس في سنة 1910م، لكل من يرغب التجنس بالجنسية الفرنسية من التونسيين. والتجنيس هوالانسلاخ من الجنس الذي ينتمي إليه الانسان والدخول في جنسية أخرى تختلف تماما عن الأولى من حيث المنشأ ونظام الدولة، والانصهار في نظام الدولة الجديدة عملا بقوانينها، سواء في أحواله الشخصية أو في المعاملات أو العقود الالتزامات أوفي جميع الجزئيات و يترتب عن ذلك تغييرفي جميع أحواله.[33] وبعد ذلك جاء قانون آخر للتجنس سنة 1920م ، ولكنه مع إغراءات مادية، وذلك بهدف تطبيق سياسة

[32] فتاوى الطاهر بن عاشور.ص174
[33] الشيخ الجامع ص138

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الذوبان للتونسيين في الجنس الفرنسي. إلا أن هذا القانون وجد مقاومة عنيفة من قبل الحركات الوطنية و التحررية، لدرجة أنها " اعتبرت القائم بهذا الفعل مرتدا عن الإسلام، يعامل كما يعامل المسلم المرتد."[34] فلا يصلى عليه صلاة الجنازة ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولقد تم فعلا منع دفن بعض المتجنسيين، مما أثار ضجة كبيرة غذتها الصحف الوطنية التي جعلت التونسيين يتمسكون اكثر بدينهم وجنسيتهم. مما جعل السلطة الاستعمارية تلجأ غلى حيلة أخرى وهي "استصدار فتوى تضمن للمتجنس التوبة وذلك عن طريق سؤال وقع التوجه به إلى المجلس الشرعي."[35]

و كان المجلس الشرعي حينذاك تحت رئاسة الشيخين: محمد الطاهر بن عاشور شيخ الاسلام المالكي، ومحمد بن يوسف شيخ الاسلام الحنفي. فكان جواب المجلس الشرعي الحنفي " إذا اعتنق شخص جنسية يختلف تشريعها عن أحكام الشريعة الاسلامية، ثم حضر لدى القاضي الشرعي، ونطق بالشهادتين، وأعلن أنه مسلم، وأنه لا يرتقي غير الاسلام دينا يحق له طوال حياته أن يتمتع بنفس الحقوق التي يتمتع بها المسلمون. وبعد وفاته يحق له أن يصلى عليه صلاة الجنازة وأن يدفن في مقبرة إسلامية."[36] وأما جواب المجلس الشرعي المالكي فهو لم يكن بذلك التأكيد، بل أضافوا شرطا آخر وهو أنه على المتجنس عند حضوره عند القاضي وبعد النطق بالشهادتين أن يصرح بأنه تخلى عن الجنسية التي اعتنقها، وبعدلك يحق له أن يدفن في مقبرة إسلامية" ولا يهم كثيرا بعدلك لو احتفظ بالجنسية التي اعتنقها وبقي خاضعا لقوانينها إذا ما تعذر عليه التخلص منها."[37] و أضاف أحد أعضاء المجلس المالكي شرطا على ذلك وهو الإقلاع عن الامتيازات التي تحصل عليها بموجب جنسيته الجديدة.

فما كان من المقيم العام الفرنسي إلا أن رفض فتوى المالكية، ولم ينشرها وكذا نص فتوى الحنفية. لأنها لا تخدم أهداف الاستعمار. إلا أنه سعى بإصدار شائعات تثير البلبلة حول رجال العلم حتى توسع الهوة بين الأمة وعلمائها، فتتمكن من عقولهم وأفكارهم. فكان في مقدمة من اتهم، و لوتت سمعته، وشككت في دينه، ووطنيته الشيخ طاهر بن عاشور، التي كلما كانت أحداث سياسية في تونس إلا وذكرت فتوى توبة المتجنسين للقضاء على شخصه ومكانته العلمية، ولتعطيل جهوده الاصلاحية والحد من إشعاعه. " وقد أثبتت براءة الشيخ من فتوى المتجنسين وكشف اللثام عن ردة المتجنسين وما حف بها من ظروف وملابسات ومن ساهم فيها".[38] وذلك عندما ظهر العدد الأول من مجلة وثائق التي يصدرها المركز القومي للتوثيق العلمي والتقني، بعد موت الشيخ الطاهر بن عاشور باثنتي عشرة سنة.

---

[34] نفس المصدر ص139
[35] نفس المصدر ص140
[36] فتاوى الطاهر بن عاشور ص427
[37] الشيخ الأعظم ص141
[38] نفس المصدر ص143

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فتوى الإفطار في رمضان:

وهي أيضا من الفتاوى التي تسببت للشيخ في محنته أيام الرئيس التونسي بورقيبة، حينما رفض أن يفتي العمال بالإفطار في رمضان 1381هـ/1962م، بدعوى الزيادة في الانتاج، وذلك تحت طلب من الرئيس. ولكن "الشيخ صرح في الإذاعة بما يوافق شرع الله في هذه القضية وذكر أن كل مفطر بدون عذر شرع كالمرض والسفر وما إلى ذلك من الأعذار التي حددها الشرع يجب عليه فيها القضاء."[39]

الخاتمة

كانت رغبتي عندما اخترت أن أدرس منهج الفتوى عند الشيخ الطاهر بن عاشور، هو أن أحاول الإحاطة بشخصيته من جميع جوانبها وأن أقف عند معالمه البارزة، خصوصا ماله علاقة بجانب الإفتاء عنده، لكني وجدت أن عالما مثله يصعب على مثلي أن يحيط ببعض معالمها فضلا عنها كلها، زيادة على قلة المصادر التي درست هذه الشخصية العلمية المتعددة الجوانب الرحبة الآفاق. لكن حاولت في هذا البحث على الأقل، أن أبرز ماله علاقة بالفتوى عنده ومنهجه فيه، لكي أصل إلى خلاصة وهي، أن منهج بن عاشور في الفتوى منهج مقاصدي إصلاحي، نابع من تكوينه الفقهي وتراكم تجاربه، ووعيه بالواقع المتغير، وقدرته على تنزيل ما يرى فيه مصلحة المجتمع المسلم.

والحمد لله رب العالمين.

[39] نفس المصدر ص146

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ ،الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1984م

شرح تنقيح الفصول، الإمام القرافي، تنقيح مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر،2004م.

قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، تحقيق د.نزيه كمال حماد و د. عثمان جمعة ضميرية. دار القلم

من أعلام الزيتونة:الشيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر ابن عاشور حياته وآثاره، د. بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 1996م.

أعلامنا، لأبو القاسم محمد كرو.

عيون البصائر،الجزء الثالث، الإمام محمد البشير الإبراهمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1997م.

صفحات من تاريخ تونس، محمد بن الخوجة، تقديم وتحقيق حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحيى، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1986م.

تراجم التسعة من الأعلام

نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، د.إسماعيل الحسني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1995م، الطبعة الأولى سلسلة الرسائل الجامعية.

مجلة الوعي الإسلامي، رمضان البوطي.

المصلحة في التشريع الإسلامي ونجم الدين الطوفي، مصطفى زيد.

الأعلام، خيرالدين الزركلي، دار العلم للملايين،الطبعة الخامسة عشرة، 2002م.

التجديد الأصولي، نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه، إعداد جماعي بإشراف د. أحمد الريسوني، المعهد العالم للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى 2014م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مقاصد الشريعة الإسلامية، محمدالطاهر بن عاشور، دراسة وتحقيق محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الطبعة الثانية 2001م.

فتاوى الشيخ الإمام محمد الطاهر بن عاشور، جمع وتحقيق محمد بن إبراهيم بوزغيبة، مراجعة قسم الدراسات والنشر بالمركز، مركز جمعية الماجد للثقافة والتراث دبي، الطبعة الأولى 2004م.